شهدت الساحة النقدية في النصف الثاني من القرن العشرين تحوّلاً جذرياً في طرائق مقاربة النصوص الأدبية، تمثّل في الانتقال من النظر إلى الأدب بوصفه تعبيراً عن الذات أو عن الواقع الاجتماعي إلى النظر إليه بوصفه بنية لغوية مستقلة تُدرَس في ضوء علاقاتها الداخلية، هذا التحوّل مثّل جوهر ما عُرف بـ المنهج البنيوي، الذي سعى إلى إرساء نقد علمي موضوعي يستند إلى مناهج اللسانيات الحديثة والأنثروبولوجيا والسيميائيات. لقد انطلقت البنيوية من فرضية أساسية مؤداها أن كل نص أدبي هو نسق من العلاقات بين عناصره، وأن فهم النص لا يتحقق من خلال مؤلفه أو ظرف إنتاجه، بل من خلال تحليل بنيته الداخلية وما تتضمنه من أنظمة لغوية ودلالية. أعلت البنيوية من شأن النص ذاته وجعلته مركز العملية النقدية، في قطيعة واضحة مع المناهج التقليدية التي كانت تركّز على نوايا المؤلف أو على تأثير العمل في المتلقي. وإذا كانت البنيوية قد تأسست في رحم اللسانيات مع أعمال فردينان دي سوسير، فإنها وجدت امتداداتها في النقد الأدبي عبر جهود رولان بارت، الذين سعوا إلى بناء تصور منهجي لتحليل النصوص يقوم على مفاهيم مثل البنية، إن دراسة المفاهيم النقدية البنيوية تتيح للباحث فهماً أعمق لكيفية اشتغال النص الأدبي، وتزوّده بأدوات تحليل دقيقة تمكّنه من الكشف عن النظام الداخلي للعمل الفني بعيداً عن الأحكام الانطباعية. كما تفتح هذه المفاهيم آفاقاً للتفكير في العلاقة بين الأدب واللغة، وهو ما يجعل البنيوية محطة أساسية في مسار تطور النقد الأدبي الحديث والمعاصر. أولاً/ الإطار المفاهيمي للبنيوية تعريف البنيوية تُعدّ البنيوية من أبرز المناهج النقدية التي أسهمت في إحداث نقلة نوعية في حقل الدراسات الأدبية واللغوية خلال القرن العشرين، إذ شكّلت ردًّا على المناهج التقليدية التي كانت تنظر إلى الأدب من منظور نفسي أو اجتماعي أو تاريخي. وقد جاءت البنيوية لتُعيد الاعتبار إلى النص ذاته، معتبرة إياه نظاماً لغوياً مغلقاً، تتحقق دلالته من خلال العلاقات الداخلية بين مكوّناته. لغةً، اشتُقّ مصطلح البنيوية من الجذر اللغوي "بنى"، ومنه جاءت كلمة البنية بمعنى الهيئة المتماسكة التي تنتظم فيها العناصر في نسق محدد. أما اصطلاحاً، فالبنيوية هي منهج نقدي يرى أن النص الأدبي لا يُفهم إلا بوصفه بنية لغوية متكاملة، فالمعنى، في التصور البنيوي، ليس معطى جاهزاً بل هو نتاج لتشابك العلاقات النصية، مما يجعل النص نظاماً مغلقاً على ذاته. لقد انبنت البنيوية على الأسس التي وضعها اللغوي السويسري فردينان دي سوسير، الذي عدّ اللغة نظاماً من العلامات تربط بينها علاقات تباينية، لا تُفهم إلا داخل النسق اللغوي ذاته. هذا التصور اللساني هو ما ألهم النقاد البنيويين في تعاملهم مع النصوص الأدبية، وأن وظيفتهم هي الكشف عن هذه العلاقات الداخلية التي تولّد المعنى. وهكذا، بل من منظور علمي دقيق يسعى إلى تحليل بنيته، وتحديد وظائف عناصره، وضبط العلاقات التي تنسجها مكوناته ضمن نسق دلالي منظم. 2/ النشأة والتطور تعود الجذور الفكرية للبنيوية إلى علم اللسانيات الحديثة، ولا سيما إلى أعمال اللغوي السويسري فردينان دي سوسير (Ferdinand de Saussure)، الذي يُعد المؤسس الحقيقي للنظرية البنيوية في بعدها اللغوي. فقد قدّم في كتابه محاضرات في اللسانيات العامة تصوراً جديداً للغة يقوم على كونها نظاماً من العلامات التي ترتبط فيما بينها بعلاقات داخلية تجعل من اللغة نسقاً مغلقاً ومنتظماً. رأى سوسير أن اللغة ليست قائمة على مفرداتها الفردية، بل على العلاقات التي تنشأ بين هذه المفردات داخل النسق اللغوي، فكل عنصر لا يكتسب قيمته إلا من خلال موقعه ضمن النظام الكلي. هذه الرؤية مثلت نقطة الانطلاق الأساسية التي بنى عليها النقاد البنيويون لاحقاً تصوراتهم حول النص الأدبي باعتباره بدوره بنية متكاملة لا تُفهم إلا من خلال علاقاتها الداخلية. الذي حاول الكشف عن البنى العميقة التي تنظّم الأساطير والعلاقات الاجتماعية، شأنها شأن اللغة، تخضع لأنساق داخلية تحكمها قوانين ثابتة. أما في مجال النقد الأدبي، فقد عرفت البنيوية انتشاراً واسعاً مع أسماء لامعة مثل رولان بارت (Roland Barthes) الذي دعا إلى "موت المؤلف" واعتبر أن النص فضاءٌ من العلامات تنتج معناها من خلال تفاعل الدوال في دراساته السردية مفهوماً دقيقاً للبنية السردية عبر مصطلحات مثل (Gérard Genette) داخل بنيته، كما طوّر جيرار جينيت "الزمن" و"التبئير" و"الصوت السردي"، مما جعل من السرديات أحد أهم تطبيقات البنيوية في تحليل النصوص الأدبية. وبذلك، والعلاقة، والبنية، والدلالة. 3/ النظرية للبنيوية قامت البنيوية على جملة من الأسس الفكرية والمعرفية التي انبثقت أساساً من التصورات اللسانية الحديثة، ثم امتدت إلى مجالات النقد الأدبي والأنثروبولوجيا والسيميائيات. ومن أبرز هذه المرتكزات النظرية ما يلي: فقد أكد فردينان دي سوسير أن اللغة ليست قائمة على مفردات منعزلة، بل هي نسق من العلامات تتحدد معانيها من خلال العلاقات التي تربط بعضها ببعض داخل النظام اللغوي. فاللغة، في جوهرها، نظام اجتماعي من الرموز يعبّر به الإنسان عن الذي يمثل البنية الكلية المنظمة لقواعد التواصل. إن النظر (langue) «أفكاره، وهي تُدرس في إطار ما يُسمّيه سوسير بـ«اللسان إلى اللغة بوصفها نسقاً مغلقاً من العلاقات الداخلية جعل من الممكن دراسة النص الأدبي بنفس المنطق، إذ أصبح النص بدوره يُعامل كبنية لغوية تخضع لقوانينها الخاصة في توليد المعنى. وهذا التصور البنيوي كان بمثابة انتقال من دراسة الأدب كظاهرة

Summarized by © lakhasly.com

تعبيرية إلى اعتباره نظاماً دلالياً قائماً بذاته. ثانياً: العلاقة بين الدال والمدلول علاقة اعتباطية من المبادئ الأساسية التي أرسى علاقة اعتباطية، أي لا تقوم على منطق طبيعي (Signifié) والمدلول (Signifiant) عليها سوسير تصوره للغة أن العلاقة بين الدال أو سببي، بل على اتفاق ضمني داخل الجماعة اللغوية. فالكلمة «شجرة» مثلاً لا تحمل في ذاتها ما يربطها فعلياً بالشيء الذي ترمز إليه، وإنما يكتسب هذا الارتباط قيمته من العرف اللغوي الذي أقرّته الجماعة الناطقة بتلك اللغة. هذا الطرح ساعد النقاد البنيويين على إدراك أن المعنى الأدبي لا يُستمد من المرجع الخارجي، بل من التفاعل بين العلامات داخل النص ذاته. فالعلامة الأدبية لا تُحيل إلى الواقع مباشرة، بل إلى علامات أخرى داخل النسق النصي، مما يجعل الدلالة نتاجاً لشبكة العلاقات الداخلية لا للمطابقة بين اللغة والواقع. ثالثاً: النص بنية مغلقة لا يُفهم إلا من داخله من أكثر المبادئ التي أثارت جدلاً في النظرية البنيوية تأكيدها على أن النص الأدبي بنية مغلقة، أي أنه نظام مكتفٍ بذاته، لا يحتاج إلى الرجوع إلى نية المؤلف أو إلى السياق الاجتماعي والتاريخي لفهمه. لأن النص يحتوي على جميع مفاتيح تأويله ضمن بنيته الداخلية. وقد عبّر رولان بارت عن هذا التوجه بقوله إن "النص فضاء من العلامات لا مرجع له سوى ذاته"، داعياً إلى تجاوز ما أسماه بـ«القراءة المؤلفية» إلى «القراءة البنيوية» التي تنشغل بكشف آليات إنتاج الدلالة داخل النص. بهذا المعنى، يصبح النص بنية لغوية مغلقة تُدرَس في ضوء قوانينها الداخلية، فيتحول الناقد من مفسّر للمضامين إلى محلّل للبنى، ترى البنيوية أن المعنى في النص الأدبي لا يُستمد من العناصر في ذاتها، بل من العلاقات التي تنشأ بينها داخل البنية. فالكلمة، أو الجملة، أو الشخصية الأدبية لا تكتسب معناها إلا ضمن النسق الذي تنتظم فيه، ومن خلال موقعها في شبكة العلاقات النصية. وهذا ما عبّر عنه سوسير بقوله إن «القيمة لا تنشأ إلا من الاختلاف»، بل بما يختلف به عن سواه. وقد تبنّى النقاد البنيويون هذا المبدأ في تحليل النصوص الأدبية، إن هذا الفهم البنيوي للمعنى جعل من النص بنية دينامية لا يمكن تفكيكها إلا بتحليل العلاقات التي تشكّلها، والتناوب، والتدرج، وهي التي تمنح النص وحدته وتماسكه الدلالي.

خاتمة ختاماً، يمكن القول إنّ البنيوية شكّلت منعطفاً حاسماً في مسار الدراسات الأدبية واللغوية، إذ نقلت النظر إلى النص من كونه مرآة تعكس ذات المؤلف أو واقعه الاجتماعي، إلى كونه بنية لغوية مغلقة تُفهم من خلال أنساقها الداخلية. لقد أوضحت هذه المحاضرة أنّ الجذور الفكرية للبنيوية تعود أساساً إلى اللسانيات السوسيرية، التي أسّست لفكرة اللغة بوصفها نظاماً من العلامات تحكمه علاقات تباينية داخلية، وهي الفكرة التي انبنى عليها لاحقاً التصور النقدي البنيوي عند بارت وتودوروف وجينيت وليفي ستراوس. كما تبيّن لنا أنّ مرتكزات البنيوية تقوم على مبادئ أساسية، من أبرزها أن اللغة نسق من العلاقات، وأن العلاقة بين الدال والمدلول اعتباطية، وأن النص الأدبي يُدرس في ضوء بنيته الداخلية بعيداً عن مؤلفه أو سياقه الخارجي، هذه الأسس النظرية منحت النقد الأدبي طابعاً علمياً موضوعياً، غير أنّ ما تناولناه اليوم لا يمثل سوى الجانب التأسيسي للنظرية البنيوية، أي ما يتصل بجذورها ومفاهيمها المركزية.

Summarized by © lakhasly.com